سنّة التأثير الفوقي

شبلي ملاّط

توفّر فاجعة الحادي عشر من ايلول دليلاً اضافياً لسنّة رافقت الحروب اللبنانية ومخلّفاتها في السلّم، يمكن تحديدها بمفهوم مستقى من العلوم النفسية، والمنتشر منها الى العلوم الانسانية عموماً، هو مفهوم "التأثير الفوقي" Surdétermination باللغة الفرنسية، اي التعليل المضاف او المستبدّ، بما يعني ان موضوعاً خاضعاً لقواعد او عناصر خاصة به تطغى عليه قواعد وعناصر تفوقه شدّة، فتسيّره بمنطقها الخاص وتجعل القواعد التي كانت تحكمه سائبة أمام المنطق الأعلى او المستبدّ الذي بات يتحكم به.

التأثير الفوقي على الوضع اللبناني، طبعاً، اقليمي. هذا كان دأب لبنان لسنوات طويلة، ازداد وطأة في أيام الحرب واستمر بعدها بسبب المعادلة الاقليمية الطاغية، فصار الشأن الداخلي مثقلاً بـ"حروب الآخرين" في العبارة المأثورة. واذا كانت هذه التداعيات المستبدّة اقليمية ولا تزال، فإن واقعة ١١ أيلول ضاعفت التأثير الفوقي بإدخاله على المعضلة بعداً دولياً اضافياً أشدّ وطأةً منهما، فاستبدّ بالمنطقين الاخفض منه سطوة، وطغى على المعادلة الاقليمية والمعادلة الوطنية الداخلية على السواء.

وهكذا صارت تداعيات ١١ أيلول تمثل عنصراً مستبداً بالعقد اللبنانية الداخلية والمعادلة الاقليمية التي تطفى عليه، من حديث واشنطن عن "المنظمات الارهابية العاملة في لبنان"، الى الدعم اللامتناهي لسياسة القمع في فلسطين، الى تراجع موضوع استقلال القرار اللبناني في مقابل النفوذ السوري وتصاعد الاستفزازات الاسرائيلية. ومن الارجح ان الموضوعات التي تهمّ اللبنانيين داخلياً سوف تزداد تورياً أمام التأثير الفوقي الاقليمي والدولي، وقد فاتنا كما فات الدول العربية عموماً اعادة توجيه السياسة الاميركية بعد ١١ أيلول.

وأمام ازدياد تلبد الاجواء اقليمياً مع خطر التصادم العراقي – الاميركي، لا بدّ لسنّة التأثير الفوقي ان تتضاعف في الاشهر المقبلة، مما يجعل الهامش اللبناني الداخلي أضيق في المستقبل المنظور. هذا يشكل تطوراً اساسياً لا يجوز ألا يؤخذ في الاعتبار، لأن تجاهله كفيل فرض قراءات لبنانية ضيّقة على مستوى جديد وغير مسبوق من سنّة التأثير الفوقي، والخطأ في القراءة مؤداه التهميش في أحسن الاحوال والانزلاق الى العنف في أسوأها.

لقد تعوّد اللبنانيون التعامل مع التأثير الفوقي الاقليمي للعنصر الداخلي البحت، وعرفوا معاني التدرج في التفاعل معه من خلال مراس طويل وآمال محجّمة. ما لم يتعوّدوه بعد، بسبب تعقيداته الخاصة وأثره المستبد على المعادلتين الاقليمية والداخلية، هو التعامل بفاعلية مع عالم ما بعد ١١ ايلول في وقعه المباشر على حياتهم. هذا ليس غريباً: فمن ناحية، يبقى هذا الوضع الى اليوم غير واضح للسياسيين الاميركيين أنفسهم، فنرى مثلاً الاسابيع القليلة التي تبعت مجزرة نيويورك ترسم بدايات تباعد مع القيادة الاسرائيلية المتطرفة، فالعودة الى دعمها في شكل أشد شراسة مذذاك. كما نرى التأرجح في السياسة ضد العراق، وحديث "تغيير النظام" يسبق الى اليوم الخطة التي يريد الرئيس الاميركي تفعيلها للوصول الى هدف معلن في غاية الخطورة.

ومن جهة أخرى، فإن الآثار الفعلية لعالم ما بعد ١١ ايلول لا تتبع دائماً ما يحلو لصنّاع القرار في الولايات المتحدة أن يترقبوه، فمن المرجح اليوم ان السياسة الاميركية المتشددة حيال أبناء المنطقة العرب والمسلمين أدّت الى انحسار الاموال النفطية العربية المتدفقة على النظام المصرفي الاميركي وتراجع توظيفها في نيويورك في شكل لحظته الصحف العالمية المتخصصة، وإن لم تقرأ فيه بعد وقع التشدد الاميركي حيال العرب والمسلمين. وفي لبنان، فإن هذه السياسة تؤدي الى نتيجتين متناقضتين: لقد بات شبهَ مستحيل للبنانيين، كما لمجمل العرب، ان يحصلوا على تأشيرة دخول الى الولايات المتحدة، وهذا طبعاً مزعج جداً لكل من يضطره وضعه العائلي او اعماله الى ان يقصد اميركا. وفي المقابل، فإن سنّة التأثير الفوقي قد أفادت لبنان الى درجة من الصعب تقديرها من حيث زيادة التوظيفات العربية في نظامه المصرفي والاقتصادي، كما من حيث تواتر الزيارات الخليجية الداعمة بقوة لنشاط قطاعه السياحي المتنامي.

هذا مثل بسيط قد يختلف البعض على تفاصيله، وفي هذه الاختلافات أيضاً معناها المثبّت لسنّة التأثير الفوقي في عالم ما بعد ١١ ايلول، لأن العناصر المستجدة غريبة عن القراءات المعتادة لاحوال لبنان الداخلية.

وفي مثل هذه الاحوال، فإن أيّ عمل مرتبط عضوياً بقراءة هذا التأثير الفوقي الدّولي في شكل علمي وعملي، ولا غنى عن دراسته المفصلة والبحث عن سبل جديدة للتعامل مع نتائج هذه الدراسة بعنوان التروّي الخلاّق، وليس هذا "الملحق" المخصص لتداعيات ١١ ايلول على بلدنا وعلى المنطقة سوى أحد المظاهر الاسمى للتعامل مع سنّة التأثير الفوقي كما تزداد ملامحها تعقيداً ووطأة في الغيوم المتلبدة فوق العراق.

وهذه التعقيدات الجديدة لا تعني ان الانتظار هو في الضرورة سيّد المواقف الحكيمة: فالانتظار قد يعني ان يستفيد رئيس الوزراء الاسرائيلي من سنّة التأثير الفوقي لتهجير الفلسطينيين في الضفة وغزة لمناسبة ما بات تداوله واضحاً في اجتماعات مجلس الوزراء المصغّر عن الخطط التي يتم تحضيرها في حال "هجوم ارهابي بحجم كبير" Mega-terrorist at-tack، واورد مثالاً على ذلك اسقاط طائرة مدنية، او استعمال سلاح دمار شامل. هنا يتجلى خطر الموقف في ظلّ سنّة التأثير الفوقي الناجم عن تماهي الولايات المتحدة مع اسرائيل في "حربها ضد الارهاب"، وارجحية دعم واشنطن لردّة فعل تهجيرية في مثل هذه الحال.

من الواضح في هذه الامثلة كيف اننا كلبنانيين رهن تطورات تفوق بأشواط قدرة تعاملنا المعهود معها. بل إن هذه الامثلة توحي ضرورة مضاعفة العمل، وطنياً واقليمياً، لدرء أسوأ الاحتمالات، ومنها حرب طاحنة على العراق قد تؤدي الى استعمال اسلحة الدمار الشامل من العراق وعليه. كما انه ضروري ان تعاد صياغة التحرك الداخلي في شكل متأنٍ حيال احتمالات في غاية الدقة.

التروي الخلاّق يعني أيضاً ضرورة التمسك بالمبادئ الانسانية الاساسية، داخلياً ودولياً كالمعيار الاكثر نفعاً أمام المستجدات – فلا بد من التمسك بالدستور اللبناني وعدم العبث به بحجة تطور اقليمي او دولي ما، لا سيما بالنسبة الى سلامة تداول السلطة، كما أنه لا بدّ من استباق الكوارث الاقليمية والدولية كما نراها مقبلة بمنطق سنّة التأثير الفوقي: فهل يجوز مثلاً حيال ازدياد الاخطار في المنطقة، ان نرتاح الى اسقاط طائرة مدنية او ضرب اعدائنا التاريخيين في اسرائيل (كما العرب فيها!؟) بالصواريخ الكيميائية متى كان واضحاً ان الحكومة الاسرائيلية الحالية تنتظر مثل هذه الافعال لتهجّر الفلسطينيين او لضرب سواد العراقيين العزّل بالسلاح النووي؟ ■

مباني العالم الزائل. (الارشيف)

الاكثر مبيعاً في
الكتب،
الموسيقى،
الافلام،
برامج الكومبيوتر
كلّها على
www.adabwafan.com
Tel: +961.1.751480 | 751481